جامعة محمد الصديق بن يحي – القطب الجامعي تاسوست

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

جامعة محمد الصديق بن يحي – القطب الجامعي تاسوست

السنة الثالثة ليسانس دراسات أدبية

مقياس : أدب الهامش

إعداد: الأستاذ السعيد بولعسل

التطبيق الرابع: قضايا أدب الهامش

____الدين____

تمهيد:

لقد شكل الهامش في الكتابة الأدبية فضاءً للصوت المشاكس المقموع اجتماعيا من قبل مؤسسات المجتمع، وفكريا من قبل العقل والعقيدة، وسياسيا من قبل السلط السياسية، كما شكل الهامش مساحة حرّة للخطاب المتمرد المنعتق عن قيود سلطة المركز، هذا المركز الذي عمل على تَموضَعه داخل التغييب والدونية والتهميش. فالهامش هو الصوت الصامد للكثير من الفئات الجماهيرية المغمورة -(فقراء، منبوذون، أقليات أصحاب العِرق واللّون والدين المختلف...إلخ)-، وهو الصوت الخارق للأجواء المحصنة بالقوة، المسترد لمركزيته المفقودة.

لقد حمل الكتاب الهامشيون على عاتق أقلامهم مسؤولية الكتابة عن واقعهم، وواقع المهمشين أمثالهم، في العديد من القضايا المتعلقة بالراهن المعاش وبسياقاته المختلفة التي تخص الدين والعرق والمرأة والسياسة والاجتماع...إلخ.

1- قضية الدين في أدب الهامش:

تمثل الأديان على إطلاقها في الحياة الإنسانية العامة ضرورة من ضرورات الحياة، فهي تعمل على إشباع حاجات الإنسان الروحية، وضبط سلوكه بما يحقق له الاستقرار والتوازن والتصالح مع الكون والوجود من حوله"ويُعرف الدين عادة بأنه " العبادة القائمة على الخشوع والرهبة والاحترام"[1] ، وبأنه " الاعتقاد بوجود ذات -أو ذوات- غيبية علوية لها شعور واختيار، ولها تصرف وتدبير للشؤون التي تعني الإنسان، اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة وفي خضوع وتمجيد"[2]، كما يطلق لفظ "الدين" على كل خضوع على وجه ما لشيء ما تقديسا وتقربا إليه[3]، سواء أكان منشأ هذا الخضوع هو الوضع كما هو الحال في الديانات الوضعية

[1] حسن علي مصطفى: نشأة الدين بين التصور الإنساني والتصور الإسلامي، دراسة في علم الاجتماع الديني، مؤسسة الإسراء للتوزيع والنشر، قسنطينة،الجزائر، ط 1، 1991، ص 10.

[2] المرجع نفسه، ص 12.

[3] الموسوعة الإسلامية العامة،وزارة الأوقاف، المجلس الإسلامي الأعلى، جمهورية مصر العربية، ص 658.

وفي المعتقدات الوثنيين كالهندوسية والبوذية والزرادشتية والمزدكية والمانوية، أو الوحي كما هو الحال في الديانات السماوية كاليهودية والمسيحية (النصرانية) والإسلام.

كما شكل الدين محور الاهتمام في تاريخ البشرية الطويل، كذلك متّل حضور ثيمة Thème الدين في الإبداع الأدبي والفني حضورا كبيرا كذلك، وما ذلك الاهتمام بالشعائر المقدسة والطقوس الدينية وممارستها والتأريخ لها عبر الاحتفاء بالمعبودات، والرموز الدينية المنقوشة في الجبال وعلى الصخور والأضرحة، وهذا الإبداع والتأنق في بناء دور العبادة والقبور، وتلك المرويات التي تمزج بين الأسطورة والمعتقد، وتلك الكتابات المضمخة بعبق الروحانيات وبالإيمان الراسخ بالقوة المتعالية إلا جانب من جوانب تكريس الديني في الإبداع عموما. وعلى الرغم من هذا الحضور البارز للديني في الواقع الاجتماعي، فقد شكل من جانب آخر ركنا من أركان الثالوث (الدين والجنس والسياسة) المسكوت عنه والمحرم اجتماعيا بفعل أجهزة المراقبة والمنع (مؤسسات الرقابة الرسمية، الجماعات الدينية)، كما شكل أحد أشكال الصراع الديني الدائر بين الأنا والآخر، على شكل صراعات بين الفئات الدينية المختلفة عقائديا ضمن الرقعة الجغرافية، أو بين الطوائف العديدة ضمن الإطار الديني الواحد. ولم يقتصر هذا الصراع على مستوى المواجهة في الواقع (كما هو الحال في السودان بين المسلمين والمسحيين، و في العراق ولبنان وسوريا بين السنة والشيعة والدروز، وفي الجزائر (غرداية) بين الإباضية والمالكية، وفلسطين بن اليهود والعرب (مسحيين ومسلمين))، بل امتد إلى المستوى الفكري والثقافي في نتاجات الأدباء من كل جنس ودين من خلال إبراز هذه ثيمة الدين عبر مجموعة من اللوحات والشخصيات. (صورة المسيحي كما هو الحال في روايات نجيب محفوظ وبهاء طاهر وصنع الله إبراهيم وسنان أنطون، صورة اليهودي كما هو الحال في روايات سحر خليفة وعائشة منور وعلي المقري، صورة المسلم كما هو الحال في روايات جورجي زيدان)

2- شخصية اليهودي في الأب الروائي العربي بين المركز والهامش:

أخذ الآخر المخالف في العقيدة أو الثقافة أو اللغة حيزا مهما في الأدب عموما والأدب العربي على وجه الخصوص، لاسيما في الرواية لما يملكه هذا الجنس الأدبي من إمكانات سردية

وجمالية، وما تتمتع به الرواية من حرية التجوال في الزمان والمكان والأعماق الإنسانية، فهي قادرة على فهم الآخر المختلف دينيا، من خلال التغلغل في عوالمه واستكشاف الجوانب السلبية والإيجابية فيه بوصفه آخرا مختلفا. ولقد حظيت شخصية اليهودي والإيديولوجيا اليهودية ديانة وسياسة بمساحة كبيرة في الخطاب الروائي العربي (كما حظيت في المقابل شخصية العربي بالمساحة نفسها في الأدب العبري)، وهو حضور لا يمكن قراءة أسبابه إلا ضمن جدلية الصراع والمواجهة بين الأنا والآخر، أو بين المركز والهامش، حيث شكلت إشكالية هذه الثنائية في الغالب طرفي معادلة الصراع بين الشخصية العربية الإسلامية المسالمة التي تمثل المركز والشخصية اليهودية النمطية المحتلة، الحافلة بالنقائص والمثالب والتي تمثل الهامش.

أ- في معرفة اليهودي وصورته التقليدية في الآداب العالمية والأدب العربي:

تشير المصادر الدينية اليهودية بأنهم من سكان أرض كنعان الذين سكنوا بلاد المشرق.ووفقاً للتوراة، فإن أصل اليهود يعود إلى النبي إبراهيم وسلالته بعده ابنه إسحاق ومن بعده ابنه يعقوب (إسرائيل)[*]، ويدعي اليهود بالإجماع بأنهم أتباع النبي موسى عليه السلام رغم أنهم يرون أن موسى وهارون عليهما السلام قد خانا الرب، لغتهم العبرية. ويستخدم الكثيرون في العالم العربي والإسلامي اليوم كلمة "اليهود" للتعبير عن كل بني إسرائيل، على الرغم من أن القرآن الكريم استعمل تعبيرات لغوية عديدة للدلالة عن بني إسرائيل (بنو إسرائيل" أي أبناء سيدنا يعقوب عليه السلام، و"الذين هادوا" أي الذين رجعوا إلى الله، "وأصحاب السبت" وكانوا مجموعة صغيرة من بني إسرائيل تمثل أهل قرية منهم و" اليهود" هم الذين قالوا عُزير ابن الله {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ} وهم طوائف محدودة من بني إسرائيل كانت موجودة في الجزيرة العربية قبل الإسلام .

[*] جاء في سفر التكوين : وقال الرب لأبرام :اذهب من أرضك (أرض أور في العراق) ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك (أرض الكنعانيين في سوريا وفلسطين).. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك، وتكون بركة... وأبارك مباركيك، ولاعنك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض (تك 12)

ب- **صفات اليهود**:

اشتهر اليهود في الأدبيات العالمية والعربية بعدة صفات سلبية، ولقد حملت صورة اليهودي لونا قاتما، فاليهودي كما يرى المفكر عبد الوهاب المسيري هو إنسان اقتصادي محض له بعد واحد(وظيفة محددة)، متحرر من القيم الأخلاقية السائدة، ويكرس ذاته لمنفعته ولذته ويؤمن بالنسبية الأخلاقية وبازدواجية المعايير وبالحتمية، ويتسم بالحركية، مرجعيته النهائية في علاقته بالمجتمع المضيف مرجعية مادية. فاليهودي بخيل، قذر، مرابي، دموي، غارق في الجنس، انتهازي، كذّاب، خائن، جشع، حاسد، خبيث؛ ولقد أكد القرآن الكريم في أكثر من موضع هذه الصفات الذميمة(*)، إلى درجة أن وصف اليهودي لم يعد يعبر عن الانتماء الديني بقدر ما أصبح يراد به الطبيعة الشخصية والسمات السلوكية والنفسية لمن يعتنقون الديانة اليهودية والتي انطبعت في مرايا الآخرين بشكل سلبي، وهي طبيعة كريهة، عدوانية وغير سوية، ولقد شاعت هذه الصورة في الآداب العالمية، فهو في مسرحية شكسبير (تاجر البندقية) يبدو - اليهودي- بصورة منفرة (جشع، فض، مرابي، محب للمال،حاقد...إلخ)؛ فالمرابي شايلوك يطلب رطلا من لحم مدينه مقابل دينه، وهو في رواية "أوليفر تويست" لتشارلز ديكنز مجرم شرير قائد عصابة، وهو عند كريستوفر مارلو في مسرحية "اليهودي المالطي" يحيك الدسائس ويمعن في القتل، أما في الأدب العربي فالصورة تكاد تتشابه؛ فهو اليهودي هو العديم الأخلاق والانتهازي والمغتصب الذي يطوع كل شيء خدمة لمصالحه، ولقد زاد الصراع مع المحتل الإسرائيلي لأرض فلسطين من قتامة هذه الصورة كما هو الحال في مسرحية "التوراة الضائعة" لعلي أحمد بكثير الذي يصور فيها كيف يستغل اليهودي الدين عن طريق التوراة والتلمود المحرفين لعمل غسيل مخ اليهود وإقناعهم بأنهم شعب الله المختار، وأن باقي البشر أدني منهم ويحق لهم أن يتخلصوا من العرب بالقتل والإبادة دون الإحساس بأي إثم أو ذنب، ورواية "الوارث" لخليل بيدس وتبدو فيها شخصية اليهودي انتهازية جشعة متكالبة على المال. وفي "زقاق المدق" لنجيب محفوظ (1947) يأتي وصف اليهوديات على لسان حميدة بأنهن متحللات من العادات والأعراف والتقاليد. ولا تختلف الصورة عند إحسان عبدالقدوس في رواية «لا تتركوني هنا وحدي» (1979) ففيها المرأة اليهودية اللعوب التي تضحّي

(*)

بكلّ شيء في سبيل المال. غير أن الملاحظ أن هذه الصورة بدأت في التغير مع مطلع القرن 21 لاسيما بعد اتفاقيات أوسلو وما رافقها من تحولات سياسية والدعوات لقبول الآخر تحت غطاء السلام وتجاوز تاريخ الصراع، والتقارب الديني وحوار الحضارات...إلخ؛ حيث بدأ التخلص من السمات السلبية شيئا فشيئا وإظهار اليهودي في صور إنسانية بلغت لدى البعض درجة وصفه بالقديس والنبيل والملاحة والإنسانية كما هو الحال في رواية "اليهودي الحالي" لعلي المقري، ورواية "يهودية مخلصة" لسالمة الموشي ورواية " في قلبي أنثى عبرية" لخولة الحمدي ورواية "أخر يهود تمنطيط" لأمين الزاوي، ورواية" البيت الأندلسي" لواسيني لعرج...إلخ.

ج- قراءة في مسرحية التوراة الضائعة لعلي أحمد بكثير، الشخصية اليهودية بين المركز والهامش:

الشخصية في الرواية هي مادة الرواية التي يرتكز عليها العمل السردي بشكل عام، لها دور محوري في البناء السردي، إذ تعمل على تحريك الأحداث زمنيا ومكانيا، فلا يمكن أن يكتمل الخطاب السردي دون وجودها الواضح. لذلك كانت للشخصيات دورا كبيرا في المتون السردية إلى درجة أنها بإمكانها السيطرة على الكاتب زحزحته. ولقد ذكرت الباحثة نجاة عبد الحق انه حتى بداية الألفية لم يتناول الأدب العربي الشخصية اليهودية الا على الهامش، حيث اقتصر تناولها على الأغلب بأسلوب نمطي سلبي،تأتي مسرحية "التوراة الضائعة" 1969 لعلي أحمد باكثير ضمن سلسلة من المسرحيات التي تتناول هذا المنظور، كما تأتي لتتناول الهم العربي والإسلامي المتمثل في مأساة احتلال فلسطين وقتل شعبها وتشريده، تأتي هذه المسرحية بعد مسرحية "شيلوك الجديد" 1945 ومسرحية " إله إسرائيل"، ومسرحية "سفر الخروج الأخير" التي لم تنشر بعد. تدور أحداثها في ثلاثة فصول كل فصل يحتوي على ثلاثة مشاهد، وتصور الواقع الأليم وبشاعة الحلم اليهودي عبر مجموعة من الشخوص تجمع بين الماضي والحاضر؛ كقضية الهيمنة اليهودية على مراكز القوة في أمريكا وتسخيرها لخدمة إسرائيل. وهجرة اليهود الأمريكان جرياً وراء الحلم الصهيوني الذي سرعان ما يكتشفون أنه سراب. كما تبرز المسرحية من ناحية حركة المقاومة الفلسطينية ودورها داخل الأرض المحتلة. يصور باكثير الشخصيات

اليهودية بصورة سلبية جدا حيث يغلب عليها الطيش والحقد والتحلل من كل قيمة أخلاقية والتي تأتي تباعا:

الشخصيات اليهودية السلبية:

1- لمليونير اليهودي الأمريكي مستر كوهين : الشخصية الحاقدة الذي يتلذذ ليتلذذ بمشاهدة ضحايا قنابل النابالم من الفلسطينيين أثناء تناوله الوجبات بالفندق التي تدور به أحداث المسرحية.
2- باربرة زوجة كوهين التي تتحول إلى المسيحية
3- جوزيف الشاب الصهيوني الموظف في هيئة تشجيع النسل الإسرائيلي والذي يتفانى في تحقيق الحلم الإسرائيلي والذي يرافق باربرة في زيارة المعابد اليهودية ويعمل على استعادتها للعقيدة اليهودية والتي تحمل منه وتوهم زوجها أنها حامل منه
4- فورتين اليهودية الحسناء خطيبة جوزيف والعاملة أيضاً في هيئة تشجيع النسل، والتي تقترب من العجوز المتصابي مستر كوهين الذي سرعان ما يقع في غرامها وهي قد حملت بالفعل من خطيبها جوزيف وما إن تمكن المليونير العجوز من نفسها حتى تلصق حملها به
5- الابنة المتزوجة راشيل فتقع في براثن الشاب اليهودي الوسيم إيزال وتنتقل للسكن في فندق آخر حتى لا يفاجئها زوجها الغائب بزيارة ولا تقتصر راشيل على رجل واحد وإنما تتحول إلى امرأة تعطي جسدها للكثير من الرجال بلا حساب
6- هرتزل: أب الصهيونية السياسية الحديثة ومؤسس دولة اليهود المغتصبة في أرض فلسطين
7- بالإضافة إلى شخصيات تاريخية صلاح الدين الأيوبي ، رتشارد قلب الأسد هتلر...إلخ.

الشخصيات اليهودية الإنسانية:

8- الإبن جيم الذي يمثل الشخصية اليهودية الإنسانية، والذي ظهر منذ البداية مشمئزاً من تصرفات والده الشاذة، ومن حقده الرهيب على كل ما هو غير يهودي. وقد زاده وجوده بإسرائيل إيماناً بحقيقة الصهيونية فتعاطف مع حركة الفدائيين واتصل بالمقاومة الفلسطنية حتى وصل أمره للعصابة الصهيونية.

ح- الأقليات المسيحية في الأدب الروائي بين المركز والهامش:

وما ينطبق على صورة اليهودي من هذا المنظور يكاد ينطبق على صورة المسيحي (الـ َسيحيون أو الَنصارى هم أتباع الديانة المسيحية، التي تعد أحد الديانات السماوية الأكثر إتباعا في العالم . يليها الإسلام) من حيث علاقة الأنا بالآخر، أو بصورة دقيقة ضمن ثنائية الأكثرية والأقلية لاسيما في المجتمعات العربية المسلمة حيث يمثل الآخر المسيحي -(رغم كونه أقلية أو الهامش أمام الأغلبية المسلمة التي تمثل المركز) - الشريك الذي يقاسم المسلم الأرض كما هو الحال في مصر ولبنان والعراق وفلسطين، ولعل الغالب على هذه علاقة هو الاحتفاء بالآخر المختلف عنه دينيًا. وإن وحضور الشخصية المسيحية التي تبدو هامشية في السياقات السردية العربية التي تحاول أن تتجاوز قضية الهوية الدينية لها بعدها التأويلي الذي يفسر مظاهر رؤية (الآخر) المسلم للمسيحي.

لقد استحضر بعض الكتاب المسلمين شخصيات مسيحية في روايتهم كما تجلت هذه الشخصية في كتابات الروائيين المسيحين أنفسهم، فمن تلك الروايات نذكر رواية "شرف"، لصنع الله إبراهيم، من خلال شخصية الصيدلاني رمزي بطرس نصيف، المتورط في الفساد،والذي يجمع بين الروح اليسارية التقدمية والانتماء الرأسمالي. ورواية "ترابها زعفران" لإدوارد الخراط، إذ تتجلى فيها العائلة القبطية متماهية في ذوات العائلات المصرية الأخرى في الأحلام البسيطة والأزمات المالية المشتركة، وحتى أوقات المصيف والضحكات الصافية للرجال مسيحيين ومسلمين في المقاهى وعلى مكاتب الوظيفة. كذلك تتجلى شخصية المسيحي في قصة البارمان، من مجموعة "خمارة القط الأسود" لنجيب محفوظ ، يركز الروائي على شخصية النادل/ البارمان اليوناني فاسيليادس ليكيشف من ورائها سر الحياة وقدرة التحمل؛ الموت وخيانة القدر، كما تأتي روايتا "يا مريم" و(إعجام) لسنان انطون ضمن السياق نفسه، فرواية (إعجام) تتحدث عن شاب مسيحي يعيش قصة حب مع فتاة مسلمة تستهويها طروحاته الثورية، ويكون مثار إعجاب باقي زملائه الطلاب لتمرده على سلطة النظام السابق، مما أدى إلى اعتقاله وتعذيبه في السجون. فرنكشتاين في بغداد) لأحمد السعداوي رواية (أقصى العالم) لناظم محمد العبيدي، فتستحضر شخصية أخرى

مثيرة للإعجاب هي شخصية لويس المسيحي من خلال وجهات نظر متعددة، كما تتجلى شخصية المسيحي الطيب في رواية الأمير لواسيني لعرج من خلال شخصية رجل الدين المسيحي مونسنيور ديبوش أول قس في الجزائر وماقام من وساطات لتخليص الأمير عبد القادر من وضع شبيه بالأسر.

خ-قراءة في رواية رواية يا مريم لسنان أنطون، الأقليات المسيحية بعيون الهامش:

يقدم الكاتب العراقي سنان أطوان في روايته (يا مريم) - رواية كتبها "روائي مسيحي عن المسيحيين العراقيين."-الواقع التراجيدي للأقليات الدينية في العراق، من خلال حادثة تفجير كنيسة "سيدة النجاة" وما مرَّ به المسيحيون في تلك الفترة، حيث يؤرخ كاتب الرواية للمحنة التي أصابت العراق عموماً من جراء الاحتلال الأمريكي والذي عمل على تفكيك الدولة العراقية، ومحنة كل الطوائف الدينية الأخرى وخاصة المسيحيين الذين تعرضوا لاضطهاد وممارسات التعسف في الارهاب والقتل والاختطاف والفدية والعنف الدموي. في هذه الرواية يكشف الكاتب كيف ترسّخ الخطاب الطائفي وممارساته وعنفه. هذه الممارسات عمّقت الانقسامات وأمعنت في تهميش المجموعات التي تقع أسفل التراتبية الطائفية. تفاصيل الرواية تسرد عبر سيرة شخصيتين مسيحيتين متناقضتين سيرة يوسف كوركيس رجل في خريف العمر في العقد الثامن- الذي يرفض الهجرة وترك البيت الذي بناه، تشده إلى البيت خيوط الأمل وذكريات الماضي الجميل) **:" "أنا في العقد الثامن من عمر صار معظمه في عداد الماضي ولم يبق منه الكثير"، " إذا كان الحاضر مفخخا ومليئا بالانفجارات والقتل والبشاعة؟ ربما كان الماضي مثل حديقة البيت التي أحبها واعتني بها كما لوكانت ابنتي. أهرب إليها من ضجيج الدنيا وبشاعتها، إنها فردوسي في قلب الجحيم أو منطقة الحكم الذاتي كما أسميها أحيانا. سأدافع عنها لأنها، هي والبيت آخر ما تبقى لي**"- كما عبر سيرة مها - (التي وجدت نفسها لاجئة داخل بلدها في بيت يوسف بعد أن عصف العنف الطائفي بحياتها وجعلها تعيش حياة التشرد رفقة زوجها لؤي، وهي التي تنتظر أوراقها كي تغادر العراق نهائيا). تدور أحداث الرواية في يوم واحد، تتقاطع فيه سرديات الذاكرة الفردية والجمعية مع الواقع، ويصطدم فيه الأمل بالقدر، عندما يغير حدث حياة الشخصيتين إلى الأبد.

تثير الرواية أسئلة جريئة وصعبة عن وضع الأقليات في العراق مسلمين ومسحيين، إذ تبحث إحدى شخصياتها عن عراق كان (شخصية يوسف)، بينما تحاول الأخرى الهرب من عراق الآن (شخصية مها).

في الرواية تتقاطع الكثير من الشخصيات المسيحية بعضها يأخذ مساحة في السرد والعض الآخر مجرد ذكر عابر؛ مثل شخصية حِنّة أخت يوسف التي يأتي ذكرها مربوطا بحبل الذكريات " **كنت قد كتبت في المربع الصغير الخاص بذلك اليوم بقلم الرصاص "وفاة حِنّة" إشارة إلى اسم شقيقتي التي فارقت الحياة قبل سبع سنوات...ذهبت إلى الكنيسة قبل شهر وطلبت من الكاهن تقديم قدّاس عن راحة نفسها في ذرى وفاتها، وتبرعت للكنيسة بمبلغ إضافي**" ، ولؤي زوج مها، وطارق عزيز الذي يلقي عليه اللوم والمسؤولية في المشاكل السياسية التي حدثت في العراق نهاية الثمانينيات (التصفيات والإعدامات والتهجير ضد الأكراد والشيعة، صدام حسين، عامر ابن أخته، باسل ابن أخيه غازي المهاجر، عمه يوحنا، أبوه كوركيس، أمه نعيمة، أخته حبيبة وسليمة، أخوه ميخائيل، نسيم حزقيل اليهودي زميل الصف الدراسي في كلية بغداد الذي يهاجر وأهله إلى إسرائيل، جاسم أبو الشوك، صوفيا لورين التي كان يردد بشأنها بأنه بينه وبينها قصة حب قديمة، دلال الفتاة المسلمة التي أحبها والتي كان مستعدا أن يشهر إسلامه من أجلها، سعدون نديمه...إلخ. كما تتناول الرواية بنفس تراجيدي ملاباسات الحرب واحتلال العراق والقصف الأمريكي العشوائي: "**كان القصف في الأيام الأولى كثيفا وعلى مدار الساعة ثم استقر على برنامج يبدأ في المساء "حفلة الأمريكان" كما سمته حنّة**" ، ومجزرة كنيسة سيدة النجاة، حدثت في أواخر شهر تشرين الاول عام 2010.